(١٩) أسباب التأخر العلمي

د. راغب:

تحدثنا عن بعض الأرقام المفزعة وصور الواقع الأليم الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ورأينا كيف أن الغرب يسبقها ووصل إلى ما وصل إليه من تقدم ورقي وحضارة عن طريق معين سار فيه، وهو طريق مفتوح لكل العالَم يسلك فيه من يسلك ويتخلف عنه من يتخلف.

ذكرنا أرقام براءات الاختراع المقدمة من أمريكا واليابان وغيرها من دول العالم، ومن الكيان الصهيوني المزروع في أرض فلسطين الحبيبة، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يحررها، وذكرنا أيضًا أن الكيان الصهيوني اخترع في العام الواحد ما هو اكثر من مجموع الاختراعات المقدمة من العالم الإسلامي، وهذا يفسر البون الشاسع بين الإمكانيات الصهيونية العسكرية والعلمية في كل المجالات وبين الإمكانيات الإسلامية، وهذا موقف لا يمكن بحال من الأحوال أن يقبله مسلم غيور على دينه حريص على أمته.

تباحثنا في الحلقة الماضية هذه القضايا ونستكمل بعض هذه الأرقام المفزعة، وهذه الحقائق التي ليس فيها نوع من التزوير أو التدليس على المسلمين ولكنها للأسف الشديد واقع نراه ونلمسه في المؤسسات العلمية الإسلامية والمؤسسات العلمية الغربية.

لكنا لا نذكر هذه الأرقام ليدخل اليأس إلى قلوب المسلمين ولكن نبحث عن الحل ونريد ان نعرف كيف يمكن أن نخرج من هذه الأزمة.

ووضحنا أن القضية هي قضية فهم، وأنا أذكر لكم قصة حدثت معي، كنت في أمريكا لإلقاء محاضرة عن العلم وأهميته في بناء الأمم، في مدينة نيو أورليانز وكان فيها جامعة كبيرة وكان بها عدد كبير من الطلبة المسلمين وذكرت الاختراعات والتقدم العلمي والفارق الكبير بين العالَم الغربي والعالَم الإسلامي، وبعد انتهاء المحاضرة جاء إلي أحد الطلاب وكان من أصحاب المال، وقال لي: أنا لي وجهة نظر في قضية العلم والاختراعات والتقدم العلمي في مجال العلوم الحياتية، فقلت: تفضل، فقال أنه يرى أنّ الله عزَّ وجلَّ قد سخر هؤلاء الغربيين والشرقيين من المخترعين للعالَم الإسلامي، فأعطى الله المال للعالَم الإسلامي وأعطى هؤلاء العلم ليخترعوا، ونشتري نحن اختراعاتهم من غير مشاكل أو تعب وهذه نعمة كبيرة أنعم الله عزَّ وجلَّ بها على المسلمين!

وعندما قال هذا الكلام أيده عدد من أصدقائه أي لم يكن فكرًا منفردًا وإنما كان ظاهرة عندهم!

ما رأيك في هذه الفكرة؟

د. صلاح:

هذا يا سيدي أتى من عقلية إمام على المنبر، سَمِعَ إمام على المنبر ويقول: "{سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ} [الزخرف: ١٣-١٤]، نحن هنا في بلادنا، الله سبحانه وتعالى أكرمنا بنعمة البترول والمال أما الغرب يتعب ويكدح ويخترع ويصنّع وتأتينا هذه السلع جاهزة نستطيع أن نشتريها"!

ذات مرة ذهبت إلى الهند وعلمت أن هناك فجوة هائلة، حيث أن بعض العلماء أصدروا فتاوى في الولايات الهندية بأنه لا يجوز أن تصرف الزكاة في جانب طلاب العلم إلا على طلاب العلوم الشرعية من علوم القرآن والحديث والسيرة وما إلى ذلك، وبالتالي تراجع المسلمون عن العلم تراجعًا كبيرًا.

على سبيل المثال عندما خرج الإنجليز من الهند كانت نسبة المسلمين في التعليم وصلت إلى ٤٠% ونسبة المسلمين في الوظائف الحكومية والقطاع العام وصلت إلى ٣٦%!

د. راغب:

وهذه نسبة متقدمة جدًا، لأن عدد المسلمين كان قليل بالقياس إلى عدد الهندوس والسيخ وغيرها من الديانات

د. صلاح:

لكن انظر إلى حال المسلمين الآن في الهند، هناك تقرير هيئة الأمم المتحدة للتنمية عام ٢٠٠٨ وجدوا أن نسبة المسلمين في التعليم هي ٤% من ٢٠٠ مليون مسلم ،ونسبة المسلمين في الوظائف الحكومية الهندية لا تزيد عن ٢%!

هذا التراجع الرهيب أدى إلى حالة فراغ، لأنه ليس هناك متخصصين وعلماء وكذلك الأموال صارت تُنفق في دائرة محدودة، وأنا لا أجد أي فارق شرعي بين أن يكفل الإنسان الغني طالبَ علمٍ يحفظ القرآن الكريم ويتخصص في العلوم الفقهية أو علوم التفسير والحديث أو علوم السيرة أو علوم الحضارة وبين أن يَكفُل طالب علم متميز ونابغ في الطب أو الهندسة أو الفلك أو أي مجال متميز.

لا أجد فارقًا من ناحية الجر والثواب لأن هذه فروض كفايات على الأمة كلها يجب أن تصل فيها إلى مستوى متميز.

وعلى علماء الأمة أن يصدروا فتاوى في هذه القضايا بشكلٍ واضح، بأن تخرج من زكوات الأموال ما يكفُل طلاب العلم، وكذلك نحن لدينا فجوة في الأمة الإسلامية بين الفقراء، وفيهم النبغاء، وبين الأغنياء، فلدينا أكثر من ٢٠٠ مليارديرعربي علهم، وخاصة المسلمين منهم، أن خصصوا من زكوات أموالهم لتقديم منح دراسية لطلاب العلوم الشرعية والحياتية.

فإذا تخلت الأنظمة السياسية كلها عن ذلك فهذا لا يُعفي الأغنياء من الأمة الإسلامية أن يتبنوا منحًا دراسية للنبغاء في كل التخصصات الشرعية والحياتية.

فمثل هذا سيحدث صحوة، والإمام الجويني في كتابه (غياث الأمم في التياث الظلم) الذي حققه العالِم الرباني الأستاذ عبد العظيم الديب رحمه الله، في هذا الكتاب الإمام الجويني يتخيل لو أن يوم من الأيام لم يعد للأمة الإسلامية خليفة أو أمير للمؤمنين فماذا سيكون على آحاد وجماعات وقبائل الأمة أن يفعلوا؟، فألقى بالمسؤولية التي كانت على الدولة في بعض الأمور على العشائر والأفراد والجماعات.

د. راغب:

إذًا الأصل أن الدولة من المفترض أن يصبح من أولى أولوياتها أن تصرف من أموالها في مجال العلم، وخاصة لو كانت هذه الدولة إسلامية فمن باب أولى أن تهتم بهذا الجانب لأن دستور الأمة الإسلامية يبدأ ب{إقرأ} وبهتم بقضية العلم وهي أكثر الكلمات شيوعا في القرآن الكريم بعد لفظ الجلالة (الله) مع إضافة مشتقات كلمات (الهدى -الدليل -البينة -الحجة).

وكما ذكرنا سابقًا أن قيمة العلم لا تُنكَر أبدًا في ميزان الإسلام والشرع الإسلامي وفي نظر الحبيب صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث وموقف.

إذًا فدور الدولة المسلمة أن تضع العلم في بؤرة الاهتمام، فإن وُجِدَ زمانٌ عجزت فيه الدولة الإسلامية عن الاهتمام بهذه القضية، واهتمت بقضايا أخرى وغيرت من الأولويات التي يجب أن تنشغل بها الدولة الصالحة، فلا يجوز في هذه الحالة أن تسقط الأمة مع هذا الوضع، لكن الغيورون على هذه الأمة، من الاقتصاديين والعلماء ومن القبائل والعشائر ومن عوام الناس وفي كل الطوائف، عليهم ألا يدعوا هذه الأمة تسقط ولكن كلٌ يُدلي بدَلوه حسب إمكانياته.

د. صلاح:

سمعت أحدهم يقول أنه يمكنه أن يتبنى طالب فيتعلم العلوم الشرعية ويصبح خطيب وإمام ويصرف عليه ٣٠٠ دولار ويأخذ ثوابًا كبيرًا في الشهر لكن لا يقبل أن يتبنى طالب علم لبعثة إلى الخارج فيصرف عليه ألفين دولار في الشهر في حين أن هذا المبلغ يصرفه على خمسة أئمة!

وأنا بحكم تخصصي ودراساتي الفقهية والأصولية أقول هل إن كان لديك ولدًا في حالة صحية جيدة فتنفق من مالك له مائة دولار في الشهر وولدًا آخر مريض تنفق عليه ألفًا هل ستقول وقتها كيف أنفق عليه كل هذا المبلغ في حين أن أخاه لا يُنفق عليه مثله؟!

نحن يجب أن نسير بالتوازي بين العلوم الشرعية والحياتية وأن ننفق على الاثنين معًا، ولو كلفنا هذا مبالغ خيالية لإعداد علماء متميزين لكن بشرط أن يعودوا إلى بلادهم ليكون إنتاجهم العلمي والفكري وبراءات الاختراع باسم الأمة الإسلامية.

د. راغب:

ومن هنا نخاطب كل حكام المسلمين في الدول الإسلامية من الشرق إلى الغرب بأن هذه مسؤولية رئيسية من مسؤوليات الحاكم المسلم، وأن يرعى ويتبنى الموهوبين وأن يكثر من البرامج التي تنتج هذه الوسائل المحفّزة والمقدّمة للأمة الإسلامية والتي تضعها في المكانة التي أرادها لها الله عزَّ وجلَّ.

ثم إن نكصوا هؤلاء على أعقابهم وتركوا هذه المهمة الجليلة، فأنادي جميع الاقتصاديين وكبار رجال الأعمال ندعوهم أن يفتحوا المجال لهذا الباب من أبواب الخير، وهو باب الإنفاق على العلم وكفالة طلاب العلم ورعاية الموهوبين وتسجيل براءات الاختراع المختلفة في مجالات كثيرة، فننفع أنفسنا والعالم أجمع بهذا العلم وينسب كل ذلك إلى المسلمون وتكون دعوة إسلامية على أعلى مستوى.

د. صلاح:

نتمنى أن نصل إلى حالة من النضج بين إخواننا الأغنياء، إلى أن بناء المعامل لا يقل أجرًا عن بناء المساجد، فنحن جُعِلت لنا الأرض مسجدًا وطهورًا، فلو لم نجد مبنًى للمساجد نصلي فيه فالله جعل لنا لأرض مسجدًا وطهورًا، لكن بناء معمل لهذا العالِم فيستطيع أن يبتكر فيه، وهذه المعامل صارت قليلة جدًا في بلادنا الإسلامية ولكنها صارت كبيرة ومتطورة ولها ميزانيات ضخمة في البلاد الغربية.

بل وفي الغرب تجد الكثير من هذه المعامل لا تنفق عليها الدولة وإنما تنفق عليها المؤسسات الاقتصادية لتطوير آلة أو المنتج تصنعه، فهي تنفق على طلاب علم نبغاء ويخصم هذا من الضرائب، والدولة هنا تساعد بخصم هذا المبلغ من الضرائب، فهو نظام كامل مُتحد.

لكن كثير من التطوير الّذي حدث هو التوأمة بين الشركات والجامعات، فنحن ندعو الأمة الإسلامية إلى هذه التوأمة بين الشركات والجامعات لالتقاط الموهوبين وإعطاؤهم تفرغًا ليكونوا يومًا ما مخترعين.

نريد أن من نرفع حالة النضج لدى الأمة الإسلامية، وأن تقوم بمثل هذه التوأمة وأن ينفق الأغنياء على بناء المعامل كما ينفقون على بناء المساجد.

د. راغب:

أعطي لإخواننا من الأمراء والوزراء مثالًا من التاريخ، فلو أحد الوزراء الذي يتحرك قلبه لهذه الأمة وذهب إلى حاكم الدولة وفعل مثلما فعل نظام المُلك الطوسي لتغيرت اوضاع العالم الإسلامي كلها.

نظام الملك الطوسي أحد أكبر وأهم الوزراء في تاريخ الأمة الإسلامية، ولو استثنينا تاريخ الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم والصدر الأول من الإسلام لقلنا ان هذا الرجل كان أعظم وزير في تاريخ الدولة الإسلامية.

هذا الرجل كان عالمًا وتقيًا وورعًا ومجاهدًا في سبيل الله وإداريًا وواسع المهارة في هذا المجال ورؤيته شاملة للأمة الإسلامية، وكان وزير دولة السلاجقة وكان وزير ألب أرسلان القائد الإسلامي المشهور ثم وزير ابنه ملك شاه والذي كان من أعظم حكام العالم الإسلامي وكان يحكم دولة من الصين إلى الشام، أي دولة هائلة فيها أكثر من ٢٠ دولة من دول زماننا الآن.

نظام المُلك الطوسي ذهب إلى ملك شاه وقال له كلمة جميلة جدًا، قال له: إن أعطاك الله عزَّوجلَّ هذا الملك الكبير وتحكم هذه البلاد الواسعة فهل تضنّ عليّ ب٣٠٠ ألف دينار تعطيها لطلبة العلم في هذه البلاد الواسعة وهم في النهاية يدرسون العلم الّذي أمر يه ربنا الّذي أعطاك الملك.

فالرجل دخلت الكلمات في قلبه فأعطاه ٣٠٠ ألف دينار، وكان نظام المُلك الطوسي من الأغنياء فأخرج من جيبه هو أيضا، وبهذه الميزانية الضخمة فأنشأ ما عرف في التاريخ بالمدارس النظامية، نسبة إلى نظام الملك الطوسي، وبدأ يؤسس هذه المدارس من منتصف القرن الخامس الهجري، وأنشأ مدارس في كل بلاد العالم الإسلامي المحكومة من الدولة السلجوقية وفي هذه المدارس استقدم لها كبار العلماء مثل أبو حامد الغزالي والإمام الجويني وعلماء من شتى المجالات، حتى جاء العلماء في علوم الشريعة وعلوم الحياة في الطب والهندسة والكيمياء والجغرافية مع العلماء المتخصصين في كافة الفروع، فحدثت ما تسمى بالثورة العلمية في العالم الإسلامي.

ومرت الأيام والسنون واُحتُلَّ العالَم الإسلامي وخاصة الشام وفلسطين، ودخل الصليبيون وتوطنوا في هذه الأماكن، لكن عندما جاء التحرير جاء من هذه البلاد التي شهدت النهضة العلمية وهي الّتي أخرجت بعد ذلك الجيل الذي خرج منه من حرر فلسطين والشام.

والشام كانت تحت الحكم العبيدي المسمى الفاطمي، وكان شيعيًا إسماعيليًا فاجرًا، يبعد الناس عن كل البعد عن أسباب العلم لذلك تخلفت هذه البلاد ولم تخرج منها نهضة جهادية تحرر البلاد.

إذا ففي النهاية الأمة كلها تستفيد علماء الشرع وعلماء الحياة يستفيدون والأمة تستفيد والبلاد تُحرَّرَ من عدوها.

هذا الوضع وهذه التجربة الحية ألا تحرك شيئًا في قلوب الحكام والأغنياء وأصحاب الهمم أنهم يعيدون الثورة العلمية في العالم الإسلامي.

هذه الثورة العلمية تكفُل لنا تحرير فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير، هذه الثورة تكفُل لنا إطعام الجوعى وإصلاح البنية التحتية في العالم الإسلامي، وتكفُل لنا مكانة مرموقة في العالم وتكفُل لنا في النهاية دعوة إسلامية صالحة نصل بها إلى العالم وفوق كل ذلك تكفُل لنا رضا الله سبحانه وتعالى.

د. صلاح:

الوزارات في العالم العربي والإسلامي فيها وزراء من أصحاب الفكر وتعلموا في الغرب ورأوا أن تقدّم هذا الغرب مرهون بنهضة وحركة علمية كبيرة جدًا، فأنا أدعوا هؤلاء أن يتقدموا بهذا المنطق الطيب الذي طرحته، وهو خدمة للبلد ككل ونهضة بالبلد، وأن يكون الحاكم حاكمًا لقومٍ متعلمين مفكرين متميزين متقدمين وليس حاكمًا لأناس مُتخلفين.

أتمنى من كل وزير أن يسعى بأقصى ما يستطيع أن يُطوّرُ وزارته استثمارًا في الجانب العلمي، سواء في جانب التعليم أو التدريب أو جانب رفع الكفاءات المتميزة، بحيث تكون هناك مسابقات وترقيات ليس بناء على المحسوبيات وإنما بناء على الاختراعات والصمود العلمي المتميز.

وكذلك الأغنياء، لا بد أن تكون هناك نقابات لهم وعليهم أن ينشؤوا وقفًا للمبتكرين والمخترعين، وهناك وقفية ظهرت في المملكة العربية السعودية لهذا الغرض لكن تحت دائرة الضغط العالمي أن تفتح لأي مخترع في العالم فأصبحت النسب فيها كما هي، فأصبحت تسعة أعشار الجوائز تذهب إلى غير مسلمين في بلاد المسلمين.

وأدعوا دول الخليج بشكل خاص وفيهم علماء ومن الّذين درسوا في الغرب الكثير أن يتبنّوا هذه الصناديق للإنفاق على النوابغ خاصة في المجالات الحياتية العلمية.

د. راغب:

مشروع الصناديق يحتاج منا إلى تفصيل وكذلك قضية الوقف من القضايا المحورية.

لكن هنا لا أريد أن أرفع من أكتاف عامة الناس هم هذه القضية، ليس فقط الأغنياء، فكل منا له دوره وبإذن الله نتباحث في هذه القضية المهمة ونضع بعض الحلول ونعالج بعض المشاكل الأخرى التي تتعرض لها الأمة.